مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تصدر ربع سنوياً

ماهية المنهج في العلوم الانسانية

د. رضاء عبد الحليم جاب الله محمد

أستاذ مساعد بقسم الفلسفة

كلية الآداب – جامعة طبرق

العدد الثامن

أكتوبر 2021

المستخلص

ماهية المنهج في العلوم الإنسانية

تكمن إشكالية دراسة منهج العلوم الإنسانية فى كون الإنسان هو الباحث وموضوع البحث، لذلك يصعب الفصل بين الذات والموضوع، كما أن طبيعة الظواهر الإنسانية لا تنفصل عن المجتمع والبدائل الحضارية التى تنمو فيها، وهذا الأمر يستدعي منهجاً يلائم ظواهرها ويفسرها تفسيراً موضوعياً.

لذا انقسم الفلاسفة والبحاث لثلاثة أقسام؛ قسم يُؤيد استخدام المنهج التجريبي الخاص بالعلوم الطبيعية لعدم اختلاف الظاهرتين – وآخر يُنادى بضرورة اضافة فهم الإرادة الإنسانية كمنهج بديل يناسب الظواهر الإنسانية، وقسم ثالث يقف موقفاً وسطاً يجمع بين المنهجين. ومن خلال البحث في تلك النقاط توصلنا للآتي:

1- صعوبة الموضوعية المحايدة للعلمين، مع الاختلاف النسبي في التطبيق.

2- لا ترتقي نتائج منهج التأويل المُستخدم في العلوم الإنسانية لدرجة اليقين العلمي كمثيلها من العلوم الطبيعية، لأنه ذات معايير ذاتية.

3- يُمكن أن تُدرَس الظاهرة الإنسانية وفق منهج يجمع المنهج التجريبي وفهم الارادة الإنسانية . والبحث لايزال قائم لتحقيق ذلك.

4- يطبق المنهج التجريبي في العلمين وفق مبدأ (اليقين الآني) للنتائج المستنبطة.

Scientific method in the human sciences

Abstract

Difficulty of studying scientific methods in humanities influenced by several factors. The first and most important is that the researcher is the subject of study, so it is difficult to separate the subject from the phenomena and the society where have been adapted.

Reviewing the literature, the study found that philosophers were divided into three groups. The first, supports the use of the experimental method because the two phenomena do not differ. The second, advocates the necessity of an alternative approach that suits human phenomena. The third, takes a middle position that combines the approach of interpretation and understanding.

The study found the following:

1- The difficulty of the neutral objectivity of the two sciences, with the relative difference in application.

2 The results of the interpretation method used in the humanities do not rise to the degree of scientific certainty as those of the natural sciences, because it is subjective criteria.

3- The human phenomenon can be studied according to a method that combines interpretation and understanding. And research is still going on to achieve this.

4- The experimental method is applied in Al-Alamein according to the principle of (immediate certainty) for the deduced results.

المُقدمة

تُعَدُ مشكلة المنهج في العلوم الإنسانية من المشكلات الشائكة التي واجهت الكثير من الفلاسفة والمتخصصين في مناهج العلوم، وظهرت هذه المشكلة مع بدايات القرن التاسع عشر، وذلك بعدما تخلصت الفلسفة من شموليتها لكافة العلوم، وباتت الحركة الانفصالية عنها هى السمة السائدة لذلك العصر، ونظراً لطبيعة موضوعات العلوم الإنسانية، التي يدور اهتمامها حول الإنسان الذي أصبح وجوده يفرض ضرورة دراسته، كانت منهجية دراسته محل الاختلاف بين الباحثين؛ فهناك من ذهب إلى أن العلوم الإنسانية التي يُعد الإنسان موضوعها لابد من دراستها دراسة علمية دقيقة من أجل الارتقاء بها إلى مصاف العلوم الأخرى خاصة الطبيعية، فالإنسان ما هو إلا ظاهرة كبقية الظواهر الأخرى التي يمكن دراستها بالاعتماد على المنهج التجريبي، أى أن تفسير الظاهرة الإنسانية تفسيراً علمياً يُعد أمراً ممكناً، هذا ما أكده عالما الاجتماع الفرنسيين أوغست كونت وإميل دوركايم، فقد ذهبا إلى اعتبار الظاهرة الاجتماعية كالظاهرة الطبيعية يُمكن تفسيرها تجريبياً.

وفي المقابل هناك من ذهب إلى أن طبيعة الإنسان النسبية تفرض الاعتماد على منهجية جديدة تضاف للمنهج التجريبي المُعتمد في يقينية العلوم الطبيعية، نظراً لاختلاف الظاهرة الطبيعية عن الظاهرة الإنسانية من حيث الموضوع، وهذا الاختلاف يتطلب اختلاف فى المنهج، ومن بين الذين تبنوا هذا الموقف الفيلسوف "فلهام دلتاي " موضحاً ضرورة دراسة العلوم الإنسانية بالمنهج التجريبي مضاف إليها فهم الارادة الإنسانية.

بينما يذهب كلود ليفي ستراوس على التأكيد أن العلوم الإنسانية تقف موقفاً وسطاً فالعلوم الإنسانية – كما يقول– "تجد نفسها في وسط الطريق بين التفسير والتنبؤ، كما لو كانت عاجزة عن السير في اتجاه التفسير أو في اتجاه التنبؤ". فالعلوم الإنسانية لا تفسر الظواهر تفسيراً نهائياً، كما أن تنبؤها ليس يقينياً".

ونظراً لأهمية وصعوبة دراسة العلوم الإنسانية الذى يُعد فيها الانسان باحثاً وموضوعاً في نفس الوقت، تخللها العديد من المشاكل من بداية نشأتها، فقد اقترنت بإشكاليات أبستيمولوجية، منها ما يتعلق بمدى علمية هذه الدراسات ، ومنها إشكاليات ميثولوجية وهى ما تتعلق بالمنهج المُستخدم لدراستها. من هذا المنطلق كانت إشكالية البحث التى تُطرح للتقارب بين قضايا النقاش وفق منهج نقدي تحليلي ومنهج تاريخي لقضاياه، نصل من خلالها لمنهج علمي يتناسب مع طبيعة ظواهر العلوم الإنسانية. ولتحقيق ذلك

يقسم البحث لثلاثة مباحث؛ الأول (الموضوعية في العلوم الإنسانية)، والمبحث الثاني: (منهج العلوم الإنسانية)،أما المبحث الثالث: سنحاول من خلاله إيجاد رؤية منهجية بسرد أهم نقاط الاتفاق والاختلاف للعلمين. وسوف نختم بحثنا بنقاط استنتاجية لما توصلنا إليه. مضافاً إليها توصيات لدراسة مستقبلية.

والله ولى التوفيق.

المبحث الأول. الموضوعية في العلوم الإنسانية

إن العلوم الانسانية بمجملها هى الجزء الذى لايتجزء من مصنفات الفلسفة على الرغم من ادعائها الانفصال عنها منذ القرن الثامن عشر، وذلك تزامناً مع تطور العلوم الطبيعية والفيزيائية التي قدمت نسقاً علمياً مميزاً للعلم. سواء من حيث دقة مناهجها ويقينية نتائجها؛ وذلك لما وفرته تلك العلوم من قدرتها على التحكم في الظواهر الطبيعية وكشف قوانينها وإعادة صياغة طريقة البحث فيها بمنهج علمي يتماشى مع كل مجالات ظواهرها. (1) هذا التقدم المُستحدث دفع الفلاسفة والباحثين إلى التفكير في إمكانية تطبيق منهجية تلك العلوم في دراسة العلوم الإنسانية. وقد ظهرت هذه الفكرة مع الفلسفة الوضعية، والتي مثلها كل من هربرت سبنسر وأوغست كونت وإميل دوركايم، الذين دافعوا عن إمكانية قيام علوم إنسانية وضعية، تدرس المجتمع الإنساني وتفسره، وتحلله تحليلاً وضعياً، بعيداً عن الذاتية مستنداً على خطوات منهجية تقوم على الملاحظة الخالصة والتجريب الدقيق. باحثين عبر تطبيقهم ذلك المنهج عن مدى علمية العلوم الإنسانية وتطورها مقارنة بالعلوم الطبيعية إذا أمكن ذلك. متسائلين، هل يصلح استخدام المنهج التجريبي لدراسة ظواهر العلوم الإنسانية أم عليها استحداث منهجاً خاصاً بها يلائم خصوصية ظواهرها الإنسانية ؟

وقبل الخوض في سرد الآراء حول ذلك الموضوع ،علينا الوقوف لتوضيح التوتر القائم بين قطبي مفهوم (العلوم / الإنسانية)، إذ يحيل مصطلح علوم على العلوم التجريبية التي تمثل النموذج المثالي للعلمية، في حين يمثل مصطلح إنسانية للفلسفة وما يتصل بها من طرق تفكير عقلية مثل المنطق من حيث إنها تتخذ الإنسان موضوعاً لها (2).

من هذا المفهوم يتضح لنا أن العلوم الإنسانية تتصف بالعلمية لكونها تستخدم منهجاً لدراسة ظواهرها، سواء كان هذا المنهج تجريبي أو خاص بها. كما أن الإنسان (موضوع الدراسة والباحث) لابد

أن يتحلى بالموضوعية في دراسة ظواهره، وهنا تتلازم صفة العلمية بصفة الباحث وموضوع دراسته بالموضوعية الخالصة لتلك العلوم متسائلين هل الموضوعية موجودة في العلوم الإنسانية بقدر وجودها في العلوم الطبيعية؟ وهل بالإمكان عزل الظاهرة الإنسانية عن الذات والتعامل معها كموضوع قابل للدراسة العلمية الدقيقة ؟ ما الإجراءات والشروط الكفيلة بموضعة الظاهرة الإنسانية ؟ وما العوائق التى تعترض تحقيق ذلك؟ **مجمل تلك الأسئلة كانت محور النقاش بين الباحثين في طبيعة العلوم الإنسانية.**

إن الموضوعية بمفهومها العام تعني الحياد العلمي والتجرد من الأهواء والرغبات الشخصية، هذا ما أكده ستنالي وبيك بتعبيره عن الموضوعية في العلم قائلاً: "إن العلم ليس شرساً أو فاضلاً فنتائج العلم لا تحمل بداخلها أحكاماً خلقية أو عقائدية، فالعلم غالبا ما يكون موضوعياً، لذا فهي تعني في النهاية تأكيد الباحث على نتائج ملاحظة الواقع أكثر من الانطباعات الشخصية **(3)**، لذا يُعد البحث في موضوعية العلوم الإنسانية لا يتخذ مسلكاً واحداً فثمة ثلاثة طرق مختلفة تكشف لنا المسارات الرئيسة للموضوعية؛ المسار الأول: الموضوعية الخارجية، وهو وجود عالم موضوعي قائم بذاته، مثل (الواقعة)، والواقعة إما شيئاً مستقلاً كما أشار " دور كايم"، أو معطى حسي سلوكي". أما المسار الثاني: الموضوعية الداخلية، وهو الماهيات كتفهم المعنى عند " دلتاي"، أو النمط المثالي والحيدة الأخلاقية لـ" ماكس فيبر"، أو في الرد إلى الذات والقصد إلى الموضوع كما عند" هوسرل". والمسار الثالث: يمثل الموضوعية التى تجمع الاثنين معاً(الداخل والخارج) وهى ما تُعرف باللاواعية والعميقة في بنيوية شتراوس. كل ما سبق آنفاً يوضح مدى اختلاف وصعوبة تحديد مفهوم الوضعية لدى الباحثين وأهميتها.

إن صعوبة موضعة الظاهرة الإنسانية تعود بالدرجة الأولى إلى خصوصيتها إذ يرى فوكو على سبيل المثال أن تعقدها و تعدد أبعادها يجعلها بالضرورة نقطة تقاطع عدة علوم و ليست موضوعاً لعلم واحد، وهو ما يجعل الدراسة فيها أمرا في غاية الصعوبة. وصعوبتها في" العلوم الإنسانية" تكمن في صيغة الجمع التي تأخذها عادة " العلوم الإنسانية". كما تعود صعوبة الموضعة كذلك لعدم قابلية الظاهرة الإنسانية للتحديد الدقيق والتكميم والخضوع للقوانين الحتمية أو للتجريب و القياس والترييض. يضاف إلى ذلك إشكال التداخل بين الذات والموضوع إذ تكون الذات هي الملاحظة لذاتها والمجربة عليها وهو ما يثير عدة تعقيدات.

,وعلى الرغم من تلك الصعوبات عمل كل من أوغست كونت A, Compte وجون ستيوارت مل J.S. Mill على مَوْضعة الظَّاهرة الإنسانية، وتطبيق مناهج العلوم الطبيعية عليها، فقد تَمَّ استلهام المنهج التجريبي من العلوم الطبيعية، واعتماده نموذجاً للتطبيق في مجال الظاهرة الإنسانية، سعياً منهم لتفسيرها تفسيراً موضوعياً، من خلال استبعاد العوامل الذاتية والتركيز فقط على العوامل الموضوعية، أما إميل دوركايم E, Durkheim فقد دعا إلى التعامل مع الظواهر الإجتماعية كأشياء، وهو ما عُرف بـ(تشيئ) الظاهرة الإنسانية (4)، أي إفراغها من محتوى الوعي، وفصلها عن الذات الدارسة، والتركيز فقط على العوامل الموضوعية والواقعية القابلة للملاحظة والقياس والتعميم. لهذا فالظاهرة الاجتماعية حسب دوركايم تتميز بخاصية الخارجية ؛ أي إنها توجد خارج الذات ويمكن ملاحظتها مثل أي موضوع آخر، وهذا ما يسمح بتحقيق العلمية والموضوعية المطلوبة في دراسة الظاهرة (5).

وقد اوضح دوركايم ذلك من خلال مقاله الذى بين فيه دور عالم الاجتماع في موضوعية الظاهرة قائلاً: " إن عالم الفيزياء ينظر إلى العالم الفيزيائي كواقع مجهول غير معروف ولكن يُمكن معرفته، كذلك يُمكن لعالم الاجتماع أن يتخذ هذا المنحنى نفسه إزاء المجتمع بنفس الروح ، فعليه أن يُعلق مشاعره وأحكامه عن الوقائع الاجتماعية، ويركن إلى ملاحظات تجاربه". (6) ولدعم هذا الموقف قام إميل دوركايم بتفسير ظاهرة الانتحار، عندما كشف دوركايم عبر الإحصاء عن القانون المتحكم في هذه الظاهرة، حيث أشار بأن السبب المتحكم في ظاهرة الانتحار هو التماسك الاجتماعي، فالتماسك الاجتماعي كلما كان ضعيفا أو قويا يؤدي إلى الانتحار. فمثلا نجد أن نسبة الانتحار عند المتزوجين أقل مقارنة بنسبة الانتحار عند غير المتزوجين، كما أن المجتمع في حالة الرخاء يكون أكثر عرضة لحالات الانتحار مقارنة بحالة عدم الاستقرار لأن الناس في الحالة الأخيرة يكونوا في حالة تماسك وتضامن. وحتى في حالة التماسك الاجتماعي القوي يمكن أن يقع الانتحار، والمثال على ذلك الذين ينتحرون بسبب فقدانهم لشخص ما. وبما أننا يمكننا تفسير الظواهر الطبيعية كسقوط الأجسام مثلاً، عبر كشف الأسباب الثابتة المتحكمة في حدوثها، وكما يمكننا التنبؤ بهما، فالظاهرة الاجتماعية كالانتحار هي الأخرى يمكننا تفسيرها عبر كشف الأسباب الثابتة المتحكمة في وقوعها، ويمكننا التنبؤ بها أيضاً.

وكما أنّه لا يسقط المطر إلا بعد توفر الشروط الموضوعية له، فكذلك الفعل الإنساني لا يقع على أرض الواقع، إلا إذا استنفد كافة الشروط القبلية التي تدفع إلى بروز سلوك وممارسات في الواقع. وبالتالي يمكن كشف الأسباب الثابتة المتحكمة في الظاهرة الإنسانية كشفاً موضوعياً.

بينما فرانسوا بستيانF, Bastian يرى إن كل باحث هو عضو ينتمي لجماعة كبيرة أو صغيرة (سواء كانت طبقة اجتماعية، أو مهنة، أو أمة...)، ، وبالتالي يكون منخرطا بالضرورة في صراعات صريحة أو ضمنية من أجل الاعتراف، والحظوة، والسلطة، وهي صراعات تحرك المعتقدات والمثل...الخ. وتتمثل الصعوبة لدى الباحث الاجتماعي في كونه لا يستطيع الانفصال كلية عن مجتمعه الذي هو موضوع دراسته، في حين يُعد هذا الانفصال مبدأ كل جهد علمي موضوعي.

أما جان بياجي J, Piaget نظر للعلوم الإنسانية بأنها علوماً لازالت في بدايتها، وطموح الموضعة لازال لم يتحقق بعد، ويتوجب على الباحثين في مجالها بذل مجهودات مضاعفة من أجل تطوير أدواتهم ومناهجهم لتحقيق الدقة والعلمية المنشودة لها، (7) اذ تعترض علمية الدراسات الانسانية عوائق عدة أهمها:

1- طبيعة موضوعات العلوم الإنسانية أكثر تعقيداً مقارنة بالعلوم التجريبية، لأن الذات مُلاحِظة لذاتها ولغيرها، ومجربة على نفسها وعلى غيرها، لهذا تُخلق وضعية التداخل بين الذات والموضوع في العلوم الإنسانية، مقارنة بالعلوم الطبيعية.

2- إن عملية إزاحة تمركز الذات حول ذاتها، والتي هي عملية ضرورية لتحقيق الموضوعية، تكون أكثر صعوبة في الحالة التي يكون فيها الموضوع هو الذات، وذلك لسببين: السبب الأول ،إن الحد الفاصل بين الذات المتمركزة حول ذاتها، والذات العارفة يكون أقل وضوحاً عندما تكون أنا المُلاحظ جزءً من الظاهرة التي يجب عليها أن تُلاحظها وتدرسها من الخارج. بينما السبب الثاني، يتمثل في كون المُلاحظ يكون أكثر ميلاً للاعتقاد في معرفته الحدسية بالوقائع لانخراطها فيها. هكذا فالعالِم – في نظر بياجي – لا يكون أبداً معزولاً، بل هو ملتزم بشكل ما بموقف فلسفي وأيديولوجي. وبذلك تفقد العلوم الإنسانية موضعيتها.

كما يؤكد لوسيان جولدمان Goldman, L ، بعجز العلوم الإنسانية عن التحرر من عقال الإرث الفلسفي التأملي في فهم الواقع وعدم استيفاء شرط الموضوعية ، ويعود ذلك لكون الباحث في مجال العلوم الإنسانية أثناء معالجته لظاهرة إنسانية يعجز عن التخلص من مواقفه المضمرة وأحكامه القبلية

ومن ثم نوازعه اللاواعية، أي استحالة تجرد الباحث في العلوم الإنسانية من إملاءات اللاوعي، وقبليات الحس المشترك إن الباحث يتصدى في الغالب، للوقائع مزوداً بمفاهيم قبلية ومقولات مضمرة ولاواعيه تسد عليه طريق الفهم الموضوعي بشكل قبلي) (8). لذلك يتطرق لوسيان إلى بعض العوائق التي تحول دون تأسيس معرفة موضوعية في العلوم الإنسانية وهى:

1- صعوبة الفصل بين الذات والموضوع؛ فجولدمان يقر بأن العلوم الإنسانية (علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ...) تبقى عاجزة عن استيفاء شرط الموضوعية لعدم مقدرة الباحث فى امكانية الفصل بين الذات الدارسة وموضوع الدراسة.

2- إن الظواهر الإنسانية تتميز بتعقد وتنوع الأسباب المؤدية لظهورها وسرعة تغيرها وصعوبة عزل الباحث عن المجتمع فهو جزء من المجتمع ولابد أن يتأثر بالظواهر الموجودة فيه، لذلك فالباحث في العلوم الإنسانية لا يستطيع التخلص من أحكامه القبلية ومواقفه المضمرة ونوازعه اللاواعية.

وقد جاء موقف دوفرينDofren مشابهاً لـ " جولدمان: حيث رفض – دوفرين- إعتبار الإنسان موضوعاً مثل بقية موضوعات الطبيعة، بل طبيعة الموضوعات الإنسانية تختلف عن طبيعة الموضوعات الطبيعية ويجب مراعاة خصوصية الظاهرة الإنسانية، وتفادي أي تضييع لها أو أية محاولة لإفقادها مميزاتها وهويتها. (لقد فقد الإنسان إحداثياته بالنسبة للعلم... ولكن مع ذلك يظل الإنسان هو هذا الإنسان عينه. أي الفرد. أي ذاك الذي يشبهني ويختلف عني أيضاً). (9)

أما **رينيه بوفريس** R, Vries في كتابها المعنون بـ "علوم الإنسان والفلسفة" يقول:(من المستحيل مبدئياً أن تتمكن العلوم الإنسانية من بلوغ موضوعية مطلقة، أو على الأقل التخلي عن جزء من أهدافها والاكتفاء بدراسة المظاهر الأولية من الحقيقة أو الواقعة الإنسانية) (10). ومن خلال هذا القول يؤكد "بوفريس " على صعوبة تحقيق الموضوعية في العلوم الإنسانية لأسباب تتصل بطبيعة الظواهر الإنسانية لأن الروح العلمية المتصفة بالموضوعية تختلف عن الفلسفة التي اهتمت بالتأملات الميتافيزيقية التي تبتعد عن المادة والحياة، وقد دعم الاتجاه الوضعي هذا الفكر، إذ عمل على رفع مكانة التجربة بحيث تُصبح هي صاحبة القول الفصل في كل معرفة، فالتصورات التي ينبغي أن تفسر الوجود والواقع تستمد من الوقائع التي يتكون منها هذا المجال، أما مضمونات التصورات الفلسفية التي تحاول أن تصل إلى

أبعد من ذلك فينبغي استبعادها . وبهذا الفكر حصر الوضعيون الإنسان في الميتافيزيقا وفكره يؤسس لتوجيهه نحو الأمور الواقعية.

وبذلك نجد كل مجهودات مؤسسي العلوم الاجتماعية قامت على مبدأ تباعد الباحث عن جماعته، بدعوة "دوركايم" إلى اعتبار الوقائع الاجتماعية أشياء، وكذلك توصية "ماكس فيبر"M, weber باحترام مبدأ الحياد القيمي. ومن ثم فهو لا يقدر على أن يكون محايداً حتى ولو رغب في ذلك. وعليه فموضوعية الظاهرة الإنسانية تبقى مسألة مستبعدة التحقق. ولا يمكن للباحث الانعزال أو الابتعاد عن العالم الاجتماعي، حتى لو رغب في ذلك (11).

كذلك نظر كل من فيليب لابروت طولرا F,L, Toller وَ جون بيير وارنييG,P, Werner للعلوم الإنسانية بإنها حديثة النشأة، أما نتائجها فهي قليلة وغير أكيدة لأن الواقع الحي الذي تحاول الإحاطة به (المجتمعات، العقليات، السلوكيات...)، هو أكثر غنى وأقل انتظاماً من الظواهر الطبيعية، وبالتالي فإن استخدام العقل في هذه العلوم مطالب بأن يكون حذراً، كما أن الروح العلمية مطالبة بأن تكون أكثر تطوراً من مثيلتها في العلوم الطبيعية، حيث تكون التجربة محكاً مباشراً وحاسماً.

ويفترض لإدراك الموضوع – حسب طولرا/ وارنيي – أن تكون الذات مستعدة لفهم ما يخالفها وفي هذه الحالة، تتمثل الروح العلمية في القدرة على استيعاب التناقض والقدرة على مواجهة ما هو غريب ومزعج ، أي تكون في لقاء دائم مع الواقع.

بينما موريس ميرلوبونتي يقول: في كتابه" " فينومينولوجيا الروح " إن كل ما أعرفه عن العالَم– ولو كان مصدره العلم – أعرفه انطلاقًا من وجهة نظر خاصة بي، أو أعرفه من خلال تجربتي الخاصة التي بدونها لن تعني رموز العلم أي شيء، لأن العلم يُبنى بكامله على العالم المُعايش (أي التجربة الذاتية للأنا) وانطلاقا منه. فأنا الذي أُوجد من أجلي أنا، وأنا الوحيد الذي يوجد وجوداً متفرداً. لا يوجد أحد مكاني ولا أُوجد في مكان أحد.

وهكذا فإن وجهة النظر العلمية التي أكون بمقتضاها مجرد لحظة من لحظات العالم هي دائماً وجهة نظر خادعة، لأنها وجهة نظر يكون العالم حولي حسبها موضوعاً، ولا يوجد لأجلي. إن الرجوع إلى

الأشياء ذاتها هو الرجوع إلى العالم المُعايش قبل أن يكون موضوع معرفة، وهكذا فكل معرفة للإنسان – حسب ميرلوبونتي – هي معرفة ذاتية لأن العلم يفترض وجود نظرة موضوعية للذات تتعالى عن كل الذوات، هي في الواقع غير موجودة

وإن اعتماد المنهج التجريبي في دراسة الظاهرة الإنسانية هو حذف ونسيان للعالم المُعايش، وللتجربة الذاتية، لذلك ينبغي العودة إلى الإنسان باعتباره مولداً للمعنى ويعيش في عالم رفقة الغير" . هذا فيما يخص عدم إمكانية موضوعية العلوم الإنسانية.

بينما فى المقابل هناك من ذهب بالقول بإمكانية موضعة العلوم الإنسانية، فنجد" أوغست كونت" يقول: " أنه بالإمكان دراسة الظواهر الإنسانية دراسة موضوعية ومادية، تفصل الظواهر عن كل تناول لاهوتي أو ميتافيزيقي، وحصرها في المنهج الوضعي، وذلك إن دل على شيء، فإنما يدل على أن ما ينطبق على العلوم الحقة، ينطبق على الظاهرة الإنسانية من حيث جعلها قابلة للتجريب والقياس المنطقي و الرياضي ، وبالدرجة الأولى قابلة للتفسير الذي يكشف عن قواعد وقوانين اشتغال الظواهر المدروسة" . أي أنه قد ربط علمية العلوم الإنسانية بإمكانية تطبيق المنهج التجريبي الذى لا يقتصر على العلوم الطبيعية. **(12)**

إن البحث العلمي لا يمكنه أن يُقيم الدليل الموضوعي على تفوق قيم على أخرى أو نظام ديني أو سياسي أو اجتماعي على نظام آخر، ولا يمكن إصدار حكم متحرر من القيم ذا ت الخصوص، ومعنى ذلك أن كل حكم من هذا القبيل لا بد وأن يستند فيه المرء على قيمه الخاصة، سواء أكان ذلك عن وعي أو عن غير وعي... ولا عيب برأي–ماكس فيبر في أن – ينظر الباحث إلى موضوع بحثه من زاوية معينة في ضوء القيم والمعايير والمثل التي يتبناها بل العيب في أن يضمرها ولا يُصرح بها، وبذلك تقتضي الموضوعية في نظر ماكس فيبر أن يكون الباحث على وعي بهذه العناصر الذاتية وأن يصرح بها، ويعمل جاهداً للحد من تأثيرها على تحليلاته، فيستطيع بذلك التمييز بين الذاتية والتوجه القيمي، وبالتالي يقتضي للباحث من هذا التمييز أن يدرك أن التوجه القيمي الواعي لا يعني الذاتية بالضرورة ما دام قادراً على التحكم فيه. **(13)**

هكذا إذن، نصل للقول بأن علاقة الذات بالموضوع في العلوم الإنسانية تخلق وضعاً معقداً يحُول دون موضعة الظاهرة الإنسانية، التي تعد أساساً لعلمية العلوم. فالممارس في مجال العلوم الإنسانية

يعيش مفارقة كبرى، فهو جزء من الظاهرة التي يدرسها وهو مطالب بالتموضع خارج الظاهرة أو أن يكون بعيداً عن كل ما يرتبط به من قيم و تمثيلات و تصورات، لذلك تواجهه عدة صعوبات نلخصها في الآتي: .

1- إن صعوبة موضعة الظاهرة الإنسانية تعود بالدرجة الأولى إلى خصوصيتها، إذ يرى فوكو مثلاً أن تعقدها و تعدد أبعادها يجعلها بالضرورة نقطة تقاطع عدة علوم و ليست موضوعاً لعلم واحد .. وهو ما يجعل الدراسة أمراً في غاية الصعوبة و ربما كان ذلك هو السبب وراء صيغة الجمع التي تأخذها عادة " العلوم الإنسانية"..

2- صعوبة الموضعة تعود أيضاً لعدم قابلية الظاهرة الإنسانية للتحديد الدقيق و التكميم والخضوع للقوانين الحتمية أو للتجريب و القياس و الترييض. يضاف إلى ذلك إشكال التداخل بين الذات والموضوع إذ تكون الذات هي المُلاحظة لذاتها و المُجربة عليها ، وهو ما يثير عدة تعقيدات.

3- يعتبر إدجار موران E, Morin إن السيسيولوجيا الإنشائية * (14)، رغم تشبثها بالعلمية ومحاولة تطلعها للنموذج الفيزيائي فإنها تبقى مرتبطة بالذات حيث لا يمكن عزل الظاهرة أو الموضوع المبحوث ودراسته بصورة تجريبية ، وهذا يعني أنه مهما حاولنا موضعة الظاهرة الاجتماعية فإن ذات الباحث تبقى حاضرة بشكل واع أو بدون وعي في الموضوع المدروس. (موران إ.)

4- تتأرجح العلوم الإنسانية بين عمليتي التفسير والتنبؤ وهما عمليتان تكتسبان أهميتهما في مجال العلوم الطبيعية بوصفها علوم تستند إلى مبدأ السببية والحتمية الذي يمكنها من صياغة قوانين ثابتة تفسر العلاقة بين الظواهر المدروسة. وهذا التأرجح يزيد من تعقد وضعها الأبستمولوجي.

يتبين من المواقف السابقة أن تطبيق النموذج العلمي التجريبي على العلوم الإنسانية وإن كان ممكنا مع (دوركايم) الذي يقول بأن دراسة الظواهر الاجتماعية من الخارج، لا تتماشى وهذا النموذج، ومع (طولرا) و(وارنيي) اللذين يؤكدان على انخراط الذات في الموضوع يشكل مناسبة لتكييف المنهج التجريبي مع خصوصية الظاهرة الإنسانية، فإن هذا الأخير يصطدم بالانتقاد الموجه له من طرف (ميرلوبونتي)، وذلك من حيث أنه يغفل تجربة الذات الإنسانية في بناء المعرفة العلمية، كما يتواجه مع رؤية (لادرير)، التي تلح على ضرورة البحث عن مناهج خاصة بالعلوم الإنسانية مخالفة لنماذج العلوم التجريبية. كل هذه

الصعوبات تجعلنا نبحث عن جدلية لا تقل أهمية في المجال نفسه الا وهى تباين الآراء حول المنهج الملائم لطبيعة موضوعات العلوم الإنسانية .

المبحث الثاني : منهج العلوم الإنسانية

يُقصد بمنهجية البحث في العلوم الإنسانية هو الأسلوب المُتَّبع لاستكشاف ودراسة الإشكاليات ذات الصبغة الاجتماعية، ومن أمثلتها أبحاث علم النفس والاجتماع والفلسفة... إلخ، وتختلف تلك الطريقة عن الأسلوب المُتَّبع في العلوم التطبيقية من حيث المنهج وأدوات الدراسة المستخدمة وأسلوب وضع الفروض العلمية.... إلخ. ولمنهجية البحث في العلوم الإنسانية إجراءات عدَّة ذات طرق وأساليب ومراحل منظمة معينة يتخذها الباحث من بداية البحث حتى الوصول إلى نتائج يوضح من خلالها أهمية وطبيعة المشكلة.

وبتتبع تاريخ العلم نلاحظ إرتباط العلوم الطبيعية بالمنهج التجريبي، وذلك لأن النظرية العلمية تعتبر أن وظيفة العلم هو الكشف عن العلاقات الثابتة الكامنة في القوانين العلمية، والظواهر المادية الخارجية تقبل التفسير بسبب خضوعها لحتمية طبيعية، أما الظواهر الإنسانية فهي عبارة عن فعالية روحية تتميز عن المادة بتواجد الوعي وتداخل الإرادة مما يقتضي اعتماد منهجاً جديداً في دراستها مغاير للمنهج التفسيري التجريبي الآلي، ولا يعنى ذلك رفض المنهج التجريبي بل إضافة منهجاً آخر يتوافق مع طبيعة العلوم الإنسانية، لذلك فالمناهج التي يُدرس بها التاريخ والمجتمع بالضرورة تختلف عن المناهج التي تقودنا إلى معرفة الطبيعة والتأكيد على منهج جديد ذو فعالية عقلية تأويلية مدركة لدلالة الظاهرة الإنسانية في وحدتها وكليتها.

وقد تبين ذلك من خلال تباين الآراء التى توضح أهمية النقاش الأبستمولوجي بصدد نموذجية العلوم التجريبية بالنسبة للعلوم الإنسانية، فإذا كان التفسير التجريبي يمثل طريقة ملائمة من شأنها أن تسفر عن نتائج ترقى إلى دقة القوانين من منظور وضعي مأخوذ بنجاح المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية ، فإن تصورات أخرى تركز على خصوصية الظاهرة الإنسانية التي تستوجب منهجاً بديلاً للتفسير التجريبي .وهذا الاختلاف يرجع إلى درجة من الوعي التى تتمتع به العلوم الإنسانية ، ففي العلوم الطبيعية يلعب الإنسان دور المُلاحظ ويمثل العالم الخارجي موضوع الملاحظة.أما في العلوم الإنسانية

فبها ثنائية الإنسان المُلاحظ والموضوع المُلاحظ، لذلك واجه منهج العلوم الطبيعية عدة عوائق في محاولة تطبيقه لدراسة العلوم الإنسانية والإحاطة بها نتيجة اختلاف طبيعة موضوعات العلمين.

ومن الطبيعي أن اختلاف الموضوعات لابد أن يؤدى لاختلاف المنهج والبحث عن منهج جديد يلائم طبيعة الظاهرة الإنسانية، وكانت من بين تلك المحاولات" ثورة "، فلهام دلتاي F, Dilthey ضد الوضعيين بتأكيده أنَّ مادة العلوم الطبيعية مشتقة من الطبيعة، أما مادة العلوم الإنسانية فهي العلوم البشرية (16) . ومن المحال الاتفاق على منهج واحد لدراستهما قائلاً: نحن نفسر الطبيعة، أما الإنسان فعلينا فهمه" أى لا نستطيع تفسير الطبيعة الإنسانية وإنما علينا فهمها، واختلاف الظاهرة يلزم اختلاف التعامل معها وتبني طرق ومناهج خاصة بها.

وكشفت محاولة "دلتاي تلك عن تأسيس أبستمولوجيا جديدة للعلوم الإنسانية، وهى "الفهم" كمقولة تخص العلوم الإنسانية ومنهج ملائم لها يُؤدى لتقدمها. تلك البادرة الدقيقة كانت بمثابة الأساس المنهجي للظاهرة الإنسانية في مقابل المعرفة التجريبية التي تُميّز العلوم الطبيعية، فالفكر يتَّخذ في كل من هاتين الطائفتين من العلوم موقفاً مختلفاً ومنهجاً مغايراً، لأن العلوم الطبيعية تعالج وقائع مادية محسوسة، بينما تعالج العلوم الإنسانية معاني باطنية لا يمكن ملاحظتها إلا بالمعايشة الداخلية.

هذا الاختلاف- بين موضوع العلوم الطبيعية وموضوع العلوم الإنسانية – طرح العديد من الإشكاليات المحورية خاصة في مجال دراسة العلوم الإنسانية، منها ما يتعلَّق بطبيعة موضوعاتها المختلفة و محاولة إيجاد منهج مُوحد يحكم ظواهر العلوم الإنسانية في مجملها. أو إشكالية المنهج المعتمد في دراستها(التجريبي / الفهم) ، فوجب بذلك على الباحث إذ قدر له أن يقوم بدراسة العلوم الإنسانية، أن يُوضح أولاً ماهيتها والمنهج المُتبع لدراستها، وهل المناهج متشابهة في شتَّى فروع العلوم الإنسانية أم لا ؟ بجانب إيضاح مدى تطورها مقارنة بالعلوم الطبيعية، وهل هذا الأمر يتعلَّق بقضية المنهج. أم هناك عوامل أخرى؟ وما السبيل لدراسة الظاهرة الإنسانية؟. أثارت هذه الأسئلة أهتمام الباحثين والعلماء بغية اقتفاء أثر الجواب عنها ، لكننا قبل الشروع في سرد ذلك ، علينا تعريف منهج التفسير التجريبي ومنهج الفهم لتقريب الأذهان في كيفية تطبيقهما في العلوم الإنسانية.

" يُعرف التفسير بأنه " كشف العلاقات السببية الثابتة بين ظاهرتين أو أكثر" (17) . سواء في العلوم الطبيعية أو الإنسانية، أما إذا وقفنا على دلالة مصطلح الفهم كآلية للتعامل مع الظواهر الإنسانية

، فهو يطلق على إدراك موضوع التفكير وتحديده واستخلاص المدلول من الدال عليه. ففهم اللفظ حصول معناه في النفس، فإن لم يحصل معناه في النفس بالقوة أو بالفعل كان كألفاظ اللغات الأجنبية تسمعها ولا تُدرأك معناها. وجملة القول أن الفهم هو مرادف للإدراك و لقوة الذهن (18) التي هي استعداد تام لإدراك العلوم و المعارف بالفكر وتصور المعنى من لفظ المخاطب أو حسن تصور المعنى. وأعلى درجات الفهم كما يُعرفها الجرجاني هو أن تعلم أن ما تصرح بفهمه لا يمكن أن يكون إلا كما فهمته، وهو بهذا المعنى مرادف للعلم اليقيني .

ويُعد مصطلح الفهم من المفاهيم المعقدة، بل إنه من أكثر المفاهيم الفكرية صعوبة على حد تعبير"هيوجز" Hughes في مؤلفه (الوعي و المجتمع)، فقد شبهه بضباب يغطي جوانب مظلمة في متاهة المناهج الألمانية للعلوم الاجتماعية، لهذا فليس غريباً، أن نجد من بين أصحاب الاتجاه الوضعي من يعجز تماماً عن استيعاب المصطلح. فريكمانRickman يرى بأنه لابد من استخدام المصطلح بمعنى محدد لنقصد بذلك البصيرة العاطفية التي ننفذ من خلالها إلى الحياة العقلية للآخرين (19) وبذلك يأتي تعريف الفهم مقابلاً للمنهج التجريبي، ويشير إلى التأويل والتقدير وفهم الدلالات والمقاصد.

وأيضاً يعرفه دلتاي بأنه:" يطلق على الصيرورة التي نعرف من خلالها ما هو (باطني)، اعتماداً على علامات ندركها بواسطة حواسنا." (20). وبذلك يقوم المنهج التفهمي التأويلي لدى " دلتاي" على إدراك المقاصد والنوايا والغايات التي تصاحب الفعل والتي تتحدد بالقيم التي توجهه. ويتم النفاذ إلى هذه الدلالات بواسطة التأويل وحضور الذات بقوة في عملية الفهم، والتأويل ذات عارفة لكنها في ذات الوقت ذات متعاطفة ومتوحدة ومشاركة ومتفهمة لموضوعها.

وتُعد تلك المحاولة لـ "دلتاي" الأساس المنهجي للعلوم الإنسانية الذى يسعى من خلالها استخلاص النتائج المعرفية وطلب الفهم ، والبحث في المعرفة العلمية كموضوع أساسي وكقضية من قضايا العلم لا تقتصر على العلوم التطبيقية، بل خرجت من الإطار التأملي لمعرفة الانسان ذاته باحثة عن العلمية في إطار ما يسمى بالعلوم الإنسانية.

وبالرغم من ذلك، وجدت العلوم الإنسانية نفسها أمام جملة من الإشكاليات تلخصت بشكل عام في قدرتها على تحقيق العلمية، أي مدى قدرتها على جعل معارفها حول الإنسان معرفة علمية، وإمكانية

قدرتها على تفسير ظواهرها كما تُفسر ظواهر الطبيعة عبر كشف القوانين الثابتة المتحكمة فيها، لأنها لا تتم إلا بفهمها عبر الدلالات والمقاصد الإنسانية.

لذا نلاحظ أن عملية التأويل لا يمكن أن نُكون من خلالها نظرية يقينية يحب اتباعها لاستنباط النتائج الموضوعية، لأن الذى يقوم بالتأويل هو الباحث، وبما أن التأويل يلجأ إلى استنباط أحدى الدلالات من الظاهرة فمن الطبيعي أن يتأثر تأويل الباحث بثقافته الخاصة. لذا لا يمكن أن يرتقي منهج التأويل أو الاعتماد على ركيزة التأويل بصدد نتائجها. أي لا يرتقي التأويل لدرجة اليقين العلمي لأنه ذات معايير ذاتية.

وعلى الرغم من عدم يقينية فكرة التأويل إلا أن " دلتاي" حاول أن يؤكد عليها، فقد اعتبر "دلتاي" أن المعرفة التاريخية مُغيبَّة في نسق الفلسفة الكانطية ولم يمنحها كانط" المكانة التي تستحقها، لذلك أتى "نقد العقل التاريخي" ليسَد هذه الفجوة واجداً تبريره في الوعي بالغياب الفادح للبعد التاريخي في العقل النظري والعملي لـ" كانط" ، محاولاً – دلتاي بعد قراءته لـ "كانط" – نقد المقولات الكانطية وإعطاء قائمة جديدة من المقولات أطلق عليها " مقولات الحياة." تتناسب و" العقل التاريخي"، أما "مقولات كانط في نظر دلتاي صالحة للعلوم الطبيعية (21). وهذا ما قصده باستكمال كتاب "كانط" "نقد العقل المحض" بـ "نقد العقل التاريخي".

وقد ذهب " دلتاي" لحل إشكالية التأويل من خلال محاولته الرامية للتَّمييز بين" التفسير التجريبي" ومجاله العلوم الطبيعية، و" الفهم" وميدانه الإنسان. هذا من حيث التعامل مع ظواهر الطبيعة في مقابل التعامل مع الظواهر الإنسانية، مضيفاً بالضرورة أن تتبنَّى العلوم الإنسانية طرائق ومناهج خاصة بها، وبالتالي فـ "التَّأويلية" تُعد بمثابة حجر الأساس لمنهجية العلوم الإنسانية ولن يَحسُنَّ أمر منهج الفهم في الإنسانيات إلاّ بما حُسُنَّ به أمر التَّفسير فى الطبيعيات، أي بإقامة منهجية صارمة تضبط قواعد الفهم وتُضفي على العلوم الإنسانية صفة العلمية، (22) وهكذا عمل "دلتاي" على بناء أساس معرفي جديد أكثر حيوية وبصورة مختلفة، جمع فيه بين التجربة التاريخية والتأويلية الذى سمي على أثرها " المُنظِّر المنهاجي للمدرسة التاريخية" – كما جهر بذلك في مصنفه "مدخل للعلوم الإنسانية"– . بعدما أدرك"– دلتاي" – أنه بالوعي التاريخي يتخلَّص الإنسان من قيود الميتافيزيقا ويتحرر من أسرها. (23)

من جهة أخرى يُؤكد "دلتاي،" في مجال العلوم الإنسانية، على تاريخية الوجود الإنساني، أي أن وجوده يتألف من ماضي وحاضر ومستقبل، فالإنسان كائن تاريخي، أى أننا نُفهم فهماً تاريخياً لأنّنا كائنات تاريخية، وهو ما عرف بفلسفة " الكائن التاريخي" لديه (24)" فمن خلال التاريخ فقط يمكننا أن نفهم أنفسنا، ومشكلة فهم الإنسان تتمثَّل في استرجاع الوعي بتاريخية وجوده الخاص، الذي افتقده نتيجة لسيطرة المقولات السكونية واللازمانية للعلم، إن فهم الحياة الإنسانية لا يقوم على مقولات خارجية عن الحياة بل، على مقولات مستقاة من صميم الحياة ذاتها، نحن نختبر الحياة في لحظات فريدة وخاصة من المعنى، أي من خلال خبرة مباشرة بالحياة ككل وفهم أجزائها." (25) نظر "دلتاي"" إلى أن التجربة المُعاشة والفهمّ كل منهما يرد إلى الآخر، فنحن نفهم فقط ما كنا عشناه بأنفسنا وما كان يمكن أن نعيشه، لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بالفهم، بصورة غير مباشرة (بتأويل أعماله) لا بالاستبطان، وبالرجوع إلى الماضي لا بالتطابق مع الحياة، وأخيراً فإن الإنسان يكتشف نفسه أيضاً باكتشافه لماضي الآخرين، وذلك لأنّنا كائنات تاريخية و نحمل التاريخ في داخلنا، فالفكر الموضوعي والآخرون والحياة المشتركة بين الناس هي المحطات التي تقوم بين الفرد وبين التاريخ العالمي. (26)

وهنا يتبين لنا إن "دلتاي" رفض هيمنة نموذج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية، فالظواهر الإنسانية تفهم ولا تفسر تجريبياً فقط: فهي ظاهرة شمولية تخص إنساناً لا يُعطى إلا كلياً، ظاهرة يتداخل فيها ما هو نفسي مع ما هو اجتماعي، في إطار تاريخي يعد متفرداً، إن المناهج الموضوعية التي تعتمد على المعايير الخارجية تعجز عن النفاذ إلى المعنى العميق لتجربة كلية تأخذ شكل "كل معايش". ولكن الفهم والتأويل هما اللذان يقودان إلى النفاذ داخل الحياة الدالة (جرانجي، 2004)

أما لجيل جاستون جرانجي G.G.GRANGER تصور مُخالف لإشكالية الفهم في العلوم الإنسانية وعلاقتها بالتفسير العلي؛ فحسب جرانجي، تتشكل النظريات العلمية في ميدان العلوم الإنسانية في صورة أبنية عقلية، حيث يرى بان نشاط العقل فيها يتراوح بين نموذجين معرفيين التفسير باعتباره كشفاً موضوعياً، والفهم بوصفه نشاطاً عقلياً تأويله يستخلص الدلالات والقيم، فالتفسير من وجهة نظر جرانجي منهج لكشف العلاقات المدروسة وهذا المنهج التفسيري بطبيعة الحال يسلكه أو يسلك مساره العالم الفيزيائي، حيث يعمل العالم جاهداً على صياغة جملة من الظواهر المعقدة في منظومة مبسطة من العلاقات تُشكل خطة صورية للظاهرة موضوع الدراسة، ولأن كل تفسير يتجاوز نطاق العلم ليلتحق

بالخيال ، فلابد ألا تقف النظرية العلمية في العلوم الإنسانية عند حدود التفسير بحيث لا يمكن تفسير الأفعال بل نسعى إلى فهمها، ومعنى هذا أننا نقوم بنقل إحساس أو تقدير أو انفعال ما بصورة حدسية ، في هذا الصدد نجد علماء النفس وعلماء الاجتماع يذهبون إلى اختزال صياغاتهم الصورية للوقائع وردها إلى أوليات مستمدة من طبيعة الواقع المُعايش ثم تقديم تأويل يرمي إلى فهم الفعل الإنساني، وبالتالي وجب القول أن الظاهرة الإنسانية لا يمكن تفسيرها تفسيراً سببياً بالكشف عن العلاقات الثابتة والقوانين التي تنظمها.

بينما جرانجي يذهب لأبعد من ذلك حيث يستند على فكرة أساسية مؤداها أن المعرفة – أي معرفة الوقائع – تتأسس على الفهم، لأن الفهم يتيح إمكانية تأويل الظاهرة الإنسانية ودلالاتها. كما يكشف جرانجي عن محدودية الفهم، حيث يقول: "المعرفة التي تتأسس على الفهم فقط هي معرفة مسرفة في مقتضياتها ومطالبها ومقصرة فيه" في آن واحد" ثم إن الرغبة في فهم جميع الظواهر، تجنح بالمعرفة في متاهات الأسطورة والسحر " (الأجتماع، 2019)

وبذلك يكشف جرانجي عن حدود المقاربة التفهيمية وعوائقها الأبستمولوجية، وفي هذا الصدد يتضح لنا أن جرانجي يصوغ فكرته حول محدودية الفهم في تمثل الأفعال الإنسانية، معتمداً على تقنيات برهانية، وذلك لإثبات فكرته وتعزيزها، كما يبرز جرانجي موقفه من الفهم، (الخولي، 2000)

وعلى خلاف جرانجي يمنح "جول مونرو"J, Monroe للفهم قيمة أساسية تتمثل في استخلاص المعاني والدلالات من التجارب الوجودية المباشرة، فالخاصية المميزة لظاهرة الفهم هي البداهة والوضوح وما يكون موضوع تفهم يكون على قدر من الوضوح وما يكون كافياً ومكتفياً بذاته فمن المستحيل الشك في بداهته بل، يتعين التسليم به كمعرفة مباشرة، فالفهم حسب مونرو هو فعل معرفي مباشر بدون طرائق موضوعية استناداً إلى علاقة الفعل بالتجربةً. (ستراوس، الاناسة البنيانية، 1995)

و تعرض هذا المنهج إلى النقد، من حيث طغيان ذات الباحث على الظاهرة المدروسة ، بحيث يصعب التمييز بين دلالات الذات الدارسة والموضوع ، مما يؤدي لعدم الالتزام بمبدأ الحياد القيمي والموضوعية العلمية، وهذا ما أكده " جادامير" بقوله: إن "دلتاي" في مشروعه الذي قام به، من خلال البحث عن منهج موضوعي مستقل للإنسانيات في مقابل منهج العلوم الطبيعية، قد باء بالفشل، لأن مهمة

الهيرمينوطيقا –كما يرى ذلك "جادامير–" ليست البحث عن منهج للإنسانيات، بل هي محاولة فهم العلوم الإنسانية على حقيقتها(31)

كما أكد كلود ليفي ستراوس K,L,Strauss على تأكيد أن تعبيرات العلوم الإنسانية فضفاضة، وتنبؤاتها غير أكيدة، لذا تقف موقفاً وسطاً، فالعلوم الإنسانية –كما يقول ستراوس: "تجد نفسها في وسط الطريق بين التفسير والتنبؤ، كما لو كانت عاجزة عن السير في اتجاه التفسير أو في اتجاه التنبؤ". فالعلوم الإنسانية لا تفسر الظواهر تفسيراً نهائياً، كما أن تنبؤها ليس يقينياً".(32) وهنا ينطلق ستراوس من مقارنة بين العلوم الدقيقة والطبيعية وبين العلوم الإنسانية، فالأولى تطورت نتيجة التكامل بين عمليتي التفسير والتنبؤ، بينما العلوم الإنسانية فبتفسيرها المحدود، وبتنبؤها غير اليقيني، تُقدم للذين يستدلون من نتائجها، شيئاً وسطاً بين المعرفة الخالصة والمعرفة النافعة، أي نوعاً من الحكمة التي تسمح بتحسين الأداء[33]، لكن من غير الفصل النهائي بين التفسير التجريبي والفهم.

ويُعد موقف ستراوس موقفاً قيماً، خاصة لأنه يقف موقفاً وسطاً بين المتحمسين لتفسير الظواهر الإنسانية، وغير المتحمسين. إذ يؤكد على كون الظاهرة الإنسانية ظاهرة صعبة الإخضاع لمنهج العلوم الطبيعية، كما هي صعبة الإخضاع للمنهج التفهمي. وهكذا تكون العلوم الإنسانية مطالبة باعتماد المنهجين معا. لكن هذا الموقف الوسط يضع العلوم الإنسانية في موقف محرج، حيث يمكن انتقادها نقداً مزدوجاً، انتقادها بحجج مناصري منهج العلوم الطبيعية وانتقادها بحجج مؤيدي الفهم. إضافة إلى ذلك فهذا القول يجعل وضعها وضعاً يشوبه اللبس والغموض.

كل تلك المواقف تبين مدى اختلاف وتباين وضعية العلوم الإنسانية بين منهج العلوم الطبيعية واستخلاص منهج خاص بها، فإذا كان (دلتاي) و(مونرو)، قد ألحا على ضرورة البحث عن منهج خاص يلائم خصوصية الظاهرة الإنسانية، وقد أيدهما "كارل بوبر" و "مالينوفسكي"، الذي ارتأى بأن تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية فيه من الضرر أكثر من النفع، مما يستدعي نوعاً من الاستقلالية بينهما كما يشير إلى ذلك "فروند". وإذا كانا قد أكدا كذلك على أهمية الفهم في دراسة الظاهرة الإنسانية، منتقدين بذلك التصور الوضعي الذي يؤكد على التفسير كعنصر تجريبي يمكن تطبيقه على تلك الظاهرة (كونت)، فإن (ستراوس)، و(جرانجي) يريان بأن العلوم الإنسانية لا زالت تتأرجح بين التفسير والتنبؤ، أو بين التفسير والفهم، مما ينعكس سلباً عليها، باعتبار تفسيراتها غير دقيقة، وتنبؤاتها غير يقينية، وفهمها قاصر

ومشبع بالحدس الذاتي. لكن يبقى مع هذا النقاش المختلف اتفاقاً في حد ذاته، طالما أنه يحاول إيجاد قاسم مشترك يضمن تحقيق علمية علوم الإنسان بين التفسير والفهم والتنبؤ والتأويل.

المبحث الثالث : رؤية منهجية

إن الحديث عن المنهج والموضوعية في العلوم الإنسانية، ومعرفة مدى امكانية العلوم الإنسانية على تفسير ظواهرها وكشف القوانين العامة المفسرة لحدوثها، قادنا ذلك إلى جملة من الإستنتاجات لعل أبرزها:

1- طبيعة الإختلاف بين موضعي العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في نوع التجربة

إختلف علماء الإنسان والأبستمولوجيا حول طبيعة التجربة المستخدمة في دراسة الظاهرة الإنسانية، وإن كان يمكن تفسيرها بآليات البحث التجريبي المستخدمة في الظواهر الطبيعية، أم هناك اضافات جديدة لتلك الآليات؟، ومن جراء ذلك انقسم العلماء لعدة اتجاهات، فقد أكد البعض على إمكانية استخدام المنهج التجريبي، مبررين ذلك بعدم وجود إختلاف بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الإنسانية، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بعدم إمكانية التفسير التجريبي بآلياته المستخدمة في دراسة الظاهرة الطبيعية لدراسة الظاهرة الإنسانية، وذلك نتيجة إختلاف الظواهر الإنسانية عن الظواهر الطبيعية ، لكون الأولى ظواهر تتعامل مع كائنات حية بها متغيرات كثيرة لذا وجب اعتماد فهم الدلالات والمقاصد في عملية تفسير التجربة، بينما الثانية ظواهر ذات خصائص ثابتة نسبياً وثبوتها يعود لمادية ظواهرها باستثناء علم الاحياء الذى يقوم بدراسة متغيرات متعددة ذات طابع حي، وبين هذا وذاك ذهب بعض آخر إلى كون العلوم الإنسانية تقف موقفاً وسطاً فهي تارة تعتمد آليات البحث التجريبي في العلوم الطبيعية من ملاحظة واحتمالات وتجربة فروض واستنباط قوانين عامة في دراسة ظواهرها، وتارة تعتمد فهم الدلالات والمقاصد بجانب آليات البحث التجريبي.

ومن هذا المنطلق يمكن التأكيد على إن العلوم الإنسانية ليست كالعلوم الطبيعية في طبيعة آليات البحث، وذلك ناتج من خصوصية الظاهرة المدروسة، فالمنهج في العلوم الطبيعية عند تفسيره لظاهرة ما يقوم بدراسة العلة والمعلول أي السببية لحدوث الظاهرة وما إلى ذلك من النتائج والقوانين التى تحكمها، وعندما يصل للنتائج عن طريق الملاحظة يضع الاحتمالات ويختبر الفروض (التجربة)، فيصل من

خلال التجربة على ترجيح بعض الفروض وإبطال البعض الآخر، أي تكون النتائج هى الشارحة للعلة والمعلول والقوانين وترجيح الفروض، وهذا ما يعرف بآليات البحث.

أي لكي يتم الوصول إلى نتائج تفسير الظاهرة لابد من معرفة وفهم الاسباب لهذه الظاهرة عن طريق تلك الآليات إذ أن تفسير وفهم الظاهرة ما هو إلا عبارة عن تحليل ما توصلنا إليه من نتائج، فالتفسير هو فهم علة الظاهرة عن طريق الآليات (منهج البحث)، والتفسير والفهم هو وصف للنتائج بعد ان استوفت كل دراستها عن طريق خطوات منهجية (من ملاحظة لاختبار الفروض) وهذا فيما يتعلق بنوع التجربة في العلوم الطبيعية .

أما في العلوم الإنسانية فإذا قمنا بدراسة ظاهرة ما محاولين من خلال تلك الدراسة تفسيرها وفهمها فإنه من الملاحظة وفرض الاحتمالات نصل للنتيجة، ولكن هناك فروقاً بين طبيعة الظاهرة في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالأولى ثابتة نسبياً والثانية بها معامل متغير تغيراً كبيراً، ألا وهو الإرادة والمشاعر الإنسانية ، لذا تختلف طبيعة التجربة في منهج الطبيعيات عن الإنسانيات، فالأولى يمكن إجراء التجربة معملياً، الأمر الذى يختلف عنه في الإنسانيات.

والاختلاف بينهما لا يعني إقصاء فكرة التجربة في دراسة الظواهر الإنسانية، ولكن التجربة الإنسانية ذات طبيعة خاصة، فمثلاً دراسة التجارب البشرية عبر التاريخ لا نستطيع أن نقيم عليها الاستقراء الكلي، لذلك تقام على تلك التجارب الاستبيان الجزئي، وهو استبيان نتوصل به لعلة النتائج من خلال دراسة فئة صغيرة من المتغيرات، لكننا لا نستطيع تعميمه، وهنا تظهر إشكالية عدم امكانية التعميم على التجارب البشرية، لأن هناك متغيرات أخرة، وفى حالة تعميمها تظهر متغيرات أخرة مخالفة، أي عدم يقينية النتائج، وهنا يتبين لنا أن النتائج التى نتوصل إليها من خلال تلك التجارب احتمالية شبيه بتلك اليقين الآني في العلوم الطبيعية وهذا ما يعرف بالمنهج في العلوم الإنسانية، وكذلك العلاقات التي تنظم الظواهر الطبيعية تتميز بإنها علاقات سببية، وهي تستعمل مصطلحات عددية وقياسية، بينما العلاقات التي تنظم الظواهر الإنسانية علاقات قيمية تستخدم مصطلحات كيفية. ومن ثمة فالعلمية في النموذج الإنساني تخضع لمعايير مغايرة للمقاييس المتضمنة في النموذج الطبيعي.

2- اختلاف العلاقة بين السياقات وردود الأفعال في العلمين.

تبين لنا أيضاً من خلال المقارنة بين طبيعة العلمين (الطبيعية والإنسانية) أن العلوم الإنسانية في حالة تشابه السياق يتضمن داخله أفعال مختلفة وسبب الاختلاف يعود للإرادة والمشاعر الناتجة من تحكم العقل في السيطرة على الأفعال. كما أنه في حالة السياقات المختلفة يمكن أن تتضمن أفعالاً متشابهة، والتشابه يكون ناتج أيضاً عن إرادة إنسانية ومشاعر التى يتحكم بها العقل، وفى حالة ثالثة يختلف فيها السياق تماماً ويمكن أن يكون الفعل مشابه للسياقات السابقة، ومن خلال ما ذكر آنفاً، نصل لنتيجة مفادها أن في العلوم الإنسانية الفعل متغير والسياقات مختلفة أي متعدد المتغيرات، وهذا ما يصور إشكالية العلوم الإنسانية.

أما العلوم الطبيعية نجد الفعل الواحد متشابه في السياقات المختلفة لثبات خصائص المادة محل الدراسة، فمثلاً "تمدد المعادن بالحرارة" هو تغير واحد مهما تغير السياق سواء كانت التجربة معملية أو غير معملية، فسياقات مختلفة والفعل واحد لأن العلوم الطبيعية ليس لها إرادة ومشاعر متغيرة، وبذلك يكون عامل التغير في موضوع الدراسة نسبي باستثناء علم الاحياء لأنه كائن حي. ومن الملاحظ أن صعوبة تطبيق منهج العلوم الطبيعية بطريقة حرفية يكمن في التجربة لكلتا العلمين فالتجربة في العلوم الطبيعية هى تعبير عن سياق المتغير فيه مطلق نسبياً باستثناء علم الاحياء. أما في العلوم الإنسانية ففي السياقات المختلفة يمكن أن تتضمن أفعالاً متشابهة وأيضاً أفعالاً مختلفة في سياقات متشابهة لاختلاف الإرادة الإنسانية .

3- إضافة فهم الإرادة الإنسانية

على الرغم من تشابه الآليات علينا إضافة – وليس الرفض – فهم الإرادة الإنسانية لآليات البحث التجريبي، لأن اختلاف التجربة في العلمين يعود لكون التجربة في العلوم الطبيعية نتائجها مطلقة نسبياً، بينما نتائج التجربة في العلوم الإنسانية أكثر نسبية مقارنة بالعلوم الطبيعية، وذلك لما بها من استبيان ذات سلبيات وايجابيات، إذن الاختلاف بين العلمين يعود، لنوع التجربة، وما يعرف بالإرادة والمشاعر في العلوم الإنسانية أي كثرة المتغيرات ونسبيتها، بينما العلوم الطبيعية بها شبة ثبات كبير.

لذا يجب إضافة عامل الإرادة الإنسانية ووضع المتغيرات موضع الدراسة ومعرفة أهدافها وغاياتها، ويُعد هذا العامل إضافة على المنهج العلمي ليتناسب مع طبيعة العلوم الإنسانية، وبذلك يقصد بالفهم هو

إضافة فهم الإرادة الإنسانية في التجارب البشرية أي الخطوات واحدة في العلمين إنما الإختلاف في نوع التجربة.

الخاتمة

إن الموضوعية القائمة في العلوم الطبيعية من المتعذر تحقيقها بشكل مطلق في العلوم الإنسانية، فطبيعة الظواهر الإنسانية تختلف عن طبيعة الظواهر الطبيعية نتيجة تميزها وتنوع الأسباب المؤدية لظهورها، وسرعة تغيرها، وصعوبة تعميمها، وصعوبة عزل الباحث عن موضوع الدراسة لكونه جزء منها ولابد أن يؤثر ويتأثر بالظاهرة محل الدراسة .

لذلك فالموضوعية العلمية وفق مقتضى العلم الطبيعي تُعد أكثر حيادية عن العلوم الإنسانية، وهذا يعني أنه من غير الممكن تأسيس علماً موضوعياً مطلقاً لدراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية، فالواقع الموضوعي لتلك الظواهر يؤكد بأنه لا يوجد علم موضوعي مستقل استقلالاً تاماً عن أي منظور قِيمي لها.

كما أن المحتوى المعرفي للعلوم الطبيعية ينصب على ظواهر محايدة لخلوها من الوعي والإرادة. والتأثير الثقافي والحضاري، والأمر يختلف بالنسبة للعلوم الإنسانية حيث تتدخل البدائل الحضارية كالأعراف والتقاليد والفلسفات والوعي العام والمفاهيم والتصورات في منطوق نظرياتها، وتقوم بالتفسيرات التي تميل إليها الظواهر الإنسانية والإجتماعية، لتنافس التفسيرات العلمية أو تستوعبها أو توجهها أو تؤثر فيها، وفي النهاية لا نظفر بتفسيرات علمية متكاملة للظاهرة الإنسانية تضاهي نظائرها فى العلوم الطبيعية.

على الرغم من صعوبة استبعاد شخصية الباحث في العلوم الإنسانية عن موضوع الدراسة بهدف التحلي بالحياد العلمي واكتساب أعلى قدر ممكن من الموضوعية، لكننا نلاحظ أن الصعوبة لا تكمن " في الأفكار الجديدة، بل في التخلص من الأفكار القديمة التي تتغلغل في كل زاوية من زوايا عقل الباحث. على حد تعبير كينز".

لذلك لن تتحقق الموضوعية المطلقة في العلوم الإنسانية إلا بعد أن يضيف الباحث ما يُعرف بفهم الإرادة الإنسانية، أي لا يوجد منهج خاص بالعلوم الإنسانية ولكن هناك عوامل خاصة بطبيعة

الموضوعات الإنسانية تُضاف للمنهج مثل متغيرات الإرادة الإنسانية والتجارب البشرية لفهم المقاصد والدلالات، وهذه العوامل هى العناصر الأساسية في إختلاف نوع التجربة بين العلمين.

فيمكن أن تُدرس الظاهرة الإنسانية وفق منهج بحثي يجمع بين المنهج التجريبي الذي يختص بالعلوم الطبيعية، وفق فهم الإرادة والمشاعر الخاص بالعلوم الإنسانية، من اجل أن تقترب العلوم الإنسانية من العلمية في منهجيتها، ونتائجها البحثية، ولكن على الرغم من المجهود المبذول من قبل الباحثين لتحقق هذا المسعى إلا أنها لم تجد ضالتها في كنف النموذج الطبيعي، لذا لا يزال الجهد البحثي مستمراً وما يزال الباحثون يأملون بأن تزداد طاقة العلوم الإنسانية وتتعزز قدراتها في الإمساك بالعقل العلمي وفق منطق يلبي حاجتها ويستجيب لخصوصيات ظواهرها ليساهم في تقدمها كمثيلتها من العلوم.

ولكن، تجمع جل التصورات تقريبا على أن ماهية المنهج العلمي بصورة عامة مسألة تواجهها مجموعة من الصعوبات، لكون المنهج العلمي التجريبي لا يُطبق بالصورة المطلقة في العلمين فهناك جانب صوري لكلاهما لا يقبل التجريب. كما أن فهم الإرادة والمشاعر يصلح للعلمين لكون العلوم الطبيعية بها ما يعرف بعلم الاحياء . لذلك تُعد المعايير العلمية نسبية لكلتا العلمين ، لكنها تختلف في مقدار نسبيتها، كما أن النتائج المستنبطة لكلاهما ذات يقين آني، لذلك لا تُحل مشكلة العلوم الإنسانية بعزلها عن الواقع، بل بجعلها تتعامل مع واقعها بالأدوات والوسائل العلمية الملائمة لها، وإضافة فهم المقاصد والدلالات حتى تكون معاملاتها لهذا الواقع مبنية وفق مقتضيات المنطق العلمي السليم.

الهوامش

1. صلاح قنصوه : الموضوعية في العلوم الإنسانية. الطبعة الأولى، القاهرة ، دار التنوير، 2007. صفحة 41..

2. المرجع نفسه. صفحة 69.

3. شتا السيد علي: المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية، الطبعة الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982,. صفحة 4.

4. إميل دوركايم. قواعد المنهج العلمي. [المترجمون] محمود قاسم ،السيد محمد بدوي، الطبعة الأولى، القاهرة ،دار المعرفة الجامعية، 1988، صفحة 70.

5. المرجع نفسه. صفحة 73.

6. صلاح قنصوه. الموضوعية في العلوم الإنسانية. مرجع سبق ذكره، صفحة 138.

7. يمنى طريف الخولي : مشكلة العلوم الإنسانية "تقنينها وامكانية حلها"، الطبعة الأولى،مصر، القاهرة،دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1990 ،صفحة 62 :63 .

8. لوسيان جولدمان. العلوم الإنسانية والفلسفة. [المترجمون] يوسف الأنطكي. الطبعة الثانية، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، 1996. صفحة 61:63.

9. المرجع نفسه. صفحة 65:66.

10. رينية بوفريس. علوم الإنسان والفلسفة. مجلة العرب والفكر العالمي. العدد 6، 1989، صفحة 36.

11. ماكس فيبر. الأخلاق البروتستانتية وروح الراسمالية. [المترجمون] محمد على مقلد، الطبعة الأولى، بيروت : مركز الإنماء القومي. صفحة 41:45.

12. فاروق عبد المعطي. اوجست كونت، الطبعة الأولى، لبنان : دار الكتب العلمية، 1993. صفحة 12:13.

13. أحمد أغبال،. مسألة الموضوعية من نظر وجهة ماكس فيبر.

http://www.sophia.over-blog.com/article- 16654140.html(04/09/2008).

14. *- السيسيولوجيا الإنشائية : هو نمط من أنماط الخطاب السيسيولوجي المعاصر لم يتحرر بعد من الثقل الميتافيزيقي والتأمل الأخلاقي، بل أنه لا زال محتفظاً بالنظر التأملي في جوهر الموجودات ، فهو يفترض وجود ذوات أو قوى فاعلة تساهم وتؤثر في الظاهرة الاجتماعية،

15. إدجار موران. منهج الإنسانية البشرية هوية البشرية. [المترجم] هناء صبحي. الطبعة الأولى، أبوظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث. صفحة 318:320.

16. نبيهة قارة:. الفلسفة والتأويل. الطبعة الأولى، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1998. صفحة 50.

17. جميل صليبا. المعجم الفلسفي. لبنان ، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982. صفحة 314..

18. المصدر نفسه:. صفحة 314:315.

19. ريكمان. منهج جديد للدراسات الإنسانية. [المترجمون] علي عبد المعطي ، محمد علي محمد، الطبعة الأولى، بيروت ، مكتبة مكاوي، 1898. صفحة 141:143.

20. صفدر إلهى راد: الهيرمينوطيقا، [المترجمون] حسنين الجمال، الطبعة الأولى، بيروت ، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2019. صفحة 84:85.

21. خديجة زيتلي: عقم الإتجاه الوضعي في التاريخ عند كولجوود. [المحرر] مجلة دراسات فلسفية، مجلة سداسية ، يصدرها معهد الفلسفة بجامعة الجزائر، العدد3، 1997 . صفحة 60: 61.

22. جادامير: الحقيقة والمنهج. [المترجمون] حسن ناظم وعلي حاكم صالح. الطبعة الأولى، طرابلس : دار أويا، 2007،. صفحة 3.

23 . جون جروندن: أصول التأويلات وفصوله. [المترجمون] محمد المفيدة. الطبعة الأولى، المغرب، مجلة دراسات فلسفية،مجلة الجمعية الفلسفية المغربية، 2002. صفحة 7.

24. جادا مير:،. الحقيقة والمنهج، مرجع سبق ذكره. صفحة 326.

25. هشام معافة: التَّأويلية والفن عند هانس جورج جادامير، الطبعة الأولى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون 2010، صفحة 59.

26. ريمون آرون: فلسفة التاريخ النقدية. [المترجم] حافظ الجمالي. الطبعة الأولى، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة، 1999. صفحة 78:79.

27 – جل جاستون جرانجي: العقل. [المترجم] محمود بن جماعة،الطبعة الأولى، تونس ، دار محمد على الحامي، 2004. صفحة 92:93.

28. علم الاجتماع بين التفسير والفهم، [المحرر] بوابة علم الاجتماع. 22 نوفمبر, 2019، علم الاجتماع، صفحة 40:42.

29. جادامير: ا لحقيقة والمنهج. مصدر سبق ذكره،. الصفحات 54–55.

30. كلود ليفي ستراوس: الإناسة البنيانية. [المترجم] حسن قبيسي. الطبعة الأولى. الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي، 1995. صفحة 370:375.

31. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، الطبعة الأولى، الكويت، سلسلة عالم المعرفة،العدد 264 ،2000،الصفحات 385: 386.

32. محمد أمزيان محمد : منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية. المعهد العالمي للفكرالإسلامي، فرجينيا،الولايات المتحدة الامريكية، 1991. صفحة 251.

33. محمد سيد أحمد: دلتاي وفلسفة الحياة، الطبعة الثانية، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2005. صفحة 31:32.